

سِمَاتٌ وَهَشَابَهُ عَرَبِيَّةٌ فِي ادْبَرِ الْكَانْبِ الإِيطَالِيِّ؛ جَوْفَانِيْ فِيرْغَا

Giovanni Verga

لِلْأَرْضِ أَفْعَسَ النَّاسَ عَرَبِيًّا
ـ لِلْقُرْبَـ

الاقتصادية المادية من اثر واسع في الحياة العادلة في أوروبا ، حتى جعلت كل شيء يفسر تفسيرا ماديا واقتصاديا وآليا .

كان جوفاني فيرغما روائى الواقعية وخلاقها المبدع ، بينما كان صديقه وزميله كابوانا ناقداً الكبير ، وناشر فاسقتهما بما يمتاز به تقاده من حيوية الأفكار والانطباعات ، إلى جانب مشاركته في الأخلاق والإبداع بما أنفقه من افاصيص وروايات ومسرحيات متزرعة كلها – أو أغلبها – من واقع الحياة الصقلية . ولعل أشهر أعماله الأدبية قصته مركيز روكافيردينا (Marchese di Roccaverdina) . وبالرغم من براعة كابوانا النقدية ، وأهمية آثاره الأدبية ، فإن فيرغما يظل اهم منه كثيراً في زعامة المدرسة الواقعية ، وأبعد اثراً .

وكان يمكن اعتبار اليساندرو مانتزونى خالقاً للمدرسة الواقعية قبل كابوانا وفيرغما ، على الأخص بروايته الشهيرة (الخطيبان – Il promessi sposi) لولا أن ما نترونی كان حريصاً على الجوانب الخلقية ، فيحکم على الاعمال والأشخاص في روايته على أساس خلقية ، لا مادية واقتصادية وعلمية ، بينما تترك المدرسة الواقعية الحكم على الاعمال والأشخاص إلى القاريء نفسه ، لا إلى المؤلف ، كما أن هذه المدرسة كانت تحرض على عدم الكشف عن الدناءات والمساوية الانسانية علينا او التشمير بها أمام القراء ، بل كانت تعطف على المحرومین من أبناء الشعب ، وتشيد

اذا كانت المدرسة الأدبية الواقعية تعزى في فرنسا إلى هونوريه دي بلزاك واميل زولا ، ويضمون إليها غني دي موباسان وغوستاف فلوبير ، فإنها في إيطاليا تعزى إلى لوبيجي كابوانا وجوفاني فيرغما ، ويضمون إليها غراتسيا ديليدا .

وإذا كان بلزاك ، في فرنسا ، يعتبر نقطة البداية في الحركة الواقعية ، وأميل زولا عامل تشبثهما وأديبها الكبير ، فإن الإيطاليين يعتبرون كابوانا نقطة البداية في المدرسة الواقعية ، أو الطبيعية (Verismo - Naturalismo) وفيرغما عامل تشبثها وأديبها الكبير ، على الأخص بروايتها الشهيرتين (أسرة مالافوليا – I Malavoglia) و (المعلم Mastro Don Gesualdo) السيد جيزوالدو .

وعلى الرغم من أن المدرسة الواقعية الإيطالية جاءت بعد اختها الفرنسية ، وكانت متاثرة بها ، إلا أنها تختلف عنها في ناحية مهمة هي أنها انصفت إلى معالجة الواقع المطلي بالصرف : الواقع الإيطالي لا الإنساني العام ، كما نرى ذلك في الشخصيات روايات فيرغما التي كانت صقلية مائة بالمائة ، واشخصيات روايات غراتسيا ديليدا التي كانت من واقع جزيرة سردينيا وحدها ، ومن بينها الفقيرة الخامدة المتالمة .

لقد تأثرت هذه المدرسة – سواء في فرنسا أم في إيطاليا – بالنهضة الصناعية والعلمية في أوروبا ، وبظهور كارل ماركس وإنجلز ، وما تركت فلسفيهما

وكان لذلك طبيعيا ان يموت بعضهم بالسل والاسقام، وينتحر بعضهم كذلك : فقد قضى (تاركيني) بالسل وعمره ثمانية وعشرون عاما ، وقضى (كامبرانا) منتحرًا ، ومات أشهرهم (بрагا) صغير السن لم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره .

عند ظهور هذه المدرسة المسولة - او فلنقول «المسطولة» ! - كان فيرغما في حدود الثلاثين من عمره، وفي عز انتشارها كان قد وصل الى فلورنسا، ثم انتقل قبل وفاتها الى ميلانو - مهد هذه الحركة وقبراها - وفي هذه الفترة جاءت اعماله الادبية مزيجا مضطربا من اثر الواقعية الفرنسية ، والتمردية الفوضوية الميلانية - مدرسة ذوي الشعور الشعث - . وهذه الاعمال التي اتجهها فيرغما هي : (خاطئة - Una Peccatrice) و (حكاية ببل - Storia di una capinera) والنمر الملكي - (Eros) (Tigre Reale) و (ايروس Eva) .

وعلى الرغم من ان فيرغما قد وضع هذه الروايات بعيدا عن الارض الققلية ، وفي وسط المدن الشمالية الكبيرة الملأى بالنشاط والحياة ، الا انه كان يعيش بروحه في ارضه الققلية ، ومنها ظل يستمد الهامه وشخصه وصورة . وعلى الرغم من النجاح الذي لقيته هذه الروايات ، فإنها لم تبلغ المستوي الفني الذي كان فيرغما يتوق الي تحقيقه . ولم يهتم الى حقيقته الفنية الا حين سلك سبيل الواقعية الادبية ، فهناك رسمت شهرة فيرغما بين عمالقة الادب الإيطالي ، ولاسيما حين ظهرت رواياته الشهيرتان (Malavoglia) (Mastro Don Gesualdo) ، المستمدتان من واقع الحياة الققلية الكادحة ، المذعنة للقدر الرهيب ، وحين أصبح شخصه من يدعوه باسم المفلوبين - (Vinti) لان القدر هي التي تسيرهم بارادتها دون ان يكون لهم فيها رأي ، ولا في تبديلها يد .

ولافي تبديلها يدب بذات الفترة الجديدة في حياة فيرغما الادبية بقصة عنوانها Nedda ظهرت عام 1874 ، ثم تلاها بعدد من المجموعات القصصية الواقعية الأخرى في كتبه التالية: (حياة الحقول - Vita dei campi) (Pane nero) 1882 ، و (خبز اسود - Novelle rusticane) 1880 ، و (أقاصيص قروية - Novelle rurale) 1883 و (في الطرقات - Per le vie) وغيرها . الا ان فيرغما بلغ الذروة في روايته (اسرة -

يعزياهم الإيجابية ، واستسلامهم الى الالم والبؤس ، ودفعهم عن الشرف ، ومن الى ذلك . وهذه المزايا كلها تجدها مصورة اروع تصوير في آثار فيرغما الادبية المستمدة من الحياة الققلية الشعبية الكادحة ، المستلمة الى المصير المحظوم .

فمن هو جوفاني فيرغما هذا ؟

ولد فيرغما في مدينة كاتانيا ، في صقلية ، عام 1840 ، وتوفي في عام 1922 ، بينما ولد زميله كابوانا - وهو ايضا من كاتانيا - قبله بعام واحد ، اي عام 1839 ، وتوفي قبله بسبعة اعوام ، اي عام 1915 .

ولقد احس فيرغما منذ حداثته بميل شديد الى الآداب ، وبحاجته الى بيئة تساعدة على تغذية ميله هذا . وفي عام 1865 غادر صقلية الى فلورنسا حيث وجد البيئة التي ي يريد . فقام فيها مدة ، ثم انتقل منها الى ميلانو ، وهنالك بدات حياته الادبية بذاتها الجدية . فقام في ميلانو الى ان عاد منها عودته النهائية الى سقط راسه - كاتانيا - حيث توفي عام 1922 .

في الفترة التي بدأ فيها فيرغما حياته الادبية كانت الحركة الادبية الواقعية واسعة الانتشار في فرنسا وأوروبا ، وكانت قد ظهرت كذلك حركة ادبية جديدة في مدينة ميلانو نفسها ، اطلق على اصحابها اسم (ذوي الشعور الشعث) (Scapigliati) - وهي اشبه بحركة الخنافس او المبيجين في يومنا هذا - فهي مدرسة تمردية ، قليلة الانصار ، قصيرة العمر جدا : اذ لم يزد عدد كتابها وشعرائها البارزين على ستة ، وهم : مؤسس هذه الحركة (Giuseppe Rovani) و (Iginio Tarchetti) و (Carlo Dossi) و (Giovanni Camerana) (Emilio Praga) وهذا أشهرهم ، واخيرا (Arrigo Boito) . اما عمر هذه الحركة فلم يزد على عشر سنوات (من 1860 الى 1870) .

لقد اراد هؤلاء الروائيون والشعراء الشبان ان يتمروا على مثالية المدرسة الرومنسية وحساسيتها المفرطة ، ولكنهم انفسوا كل الانفاس في حياة فوضوية بوهيمية ، وفي الكفر بالله والانسان والوطن والفن ، وبكل المثل العليا في الحياة ، ومضوا يشندون النسيان في تعاطي الخمر والآليون .

هذه الفقرة اخترتها من كتاب (تاريخ النقد الفيرغوي) - (Storia della critica Verghiana) الصديقي الكاتب الإيطالي (Giorgio Santangelo) الاستاذ في كلية الآداب في جامعة باليرمو . و كنت قد قرأت هذا الكتاب النفيس قبل ان اشرع في دراسة آثار فيرغا ، لكي يساعدني على فهم هذه الآثار الأدبية فيما صحيحا . والحقيقة انه افادني كثيراً بان اطعمني على آراء العديد من النقاد الإيطاليين في فيرغا وادبه ، حتى لقد خيل الي انه لم يبق جانب من جوانب فيرغا الفنية الا شبع درسا وتحليلا .

و حين عكفت على دراسة روائي فيرغا الكباريين (اسرة مالافوليا) - والعلم السيد جيزوالدو) وجدت ان هناك نقطتين جديرتين بالنقاش والتحليل رغم كل ما قاله النقاد في اعمال فيرغا الادبية . وانا في هذه العجالة اقتصر على هاتين الروايتين وحدهما من بين انتاج فيرغا كلها .

النقطة الاولى تتعلق بالحتمية القدرية (Fatalismo) التي يراها النقاد في آثاره ، والتي ارناهاانا بطولة ورجولة ، لا خنوعا لقدر محظوم لا يمكن قهره .

و يبدو لي ان هذه الحتمية التي يراها تقاد فيرغا قد أصبحت لديهم ماركة مسجلة بالنسبة الى اعماله الادبية ، ولا سيما الواقعية منها ، فهو عندهم لا يعرف الا بها .

و حين تذكر هذه الحتمية ينصرف ذهنتنا الى نطuman بشرية مذعنية لمصيرها المحتوم : سير بعون مفحة ، ورؤوس متحنية خنوعا ، ولا تدرى - او لعلها لا تملك ان تدرى ، او تسأل - ان كانت تساق الى المصلح ام الى المرعى ، لأن ارادتها مشلولة ، ومسيرها مخطوط منذ الازل في لوح القدر من نقطة انطلاقها حتى النهاية .

ولكن هل كان كذلك حقا ابطال فيرغا ؟ (اكرر هنا اني اتحدث عن « اسرة مالافوليا » ، و جيزوالدو) بنوع خاص للازيد الموضوع اتساما ، واطلق الجناحين اكثر مما يجب) .

فلنحاول ان نأتي نظرة سريعة على كل من هاتين الروايتين لكي نصل من ذلك الى حيث نضع اصابعنا في موضع الجراح من اولئك (الابطال) الذين يابي فيرغا الا ان يدعوههم باسم (المفلوبيين) او المهزومين - (Vinti) :

مالافوليا - والمعلم السيد جيزوالدو) ، وقد ظهرت الاولى عام 1881 ، والثانية 1889 . ويمكن ان نضاف اليهما روايتان اخريتان ، هما : (زوج الينا - marito di Elena) عام 1882 ، و (حستك على حستي - Dal tuo al mio) عام 1906 .

في هذه الروايات انصرف فيرغا قبل كل شيء الى النظر الى الانسان في عقوبة احساسيه واعماله ، والى الدنيا في الاعيب الاقدار العجيبة وتحكمها بمصائر البشر . فهو شديد العطف على الضعفاء ، والمعتوهين ، والمفلوبيين على امرهم الذين يحنون رؤوسهم لشيبة القدر المستبد ، يتفهمهم بعطف عميق حتى في اخطائهم .

وقد اهتدى فيرغا اذن الى نفسه ، اذ عاد بروحه وقلمه من دنيا القصور البادخنة والحياة المترفة في المدينة الصاحبة ليسخروج عبر ارضه الصقلية ، ويعيش مع شعبه ، ويستذوق طعم الخبر البيتي اللذيد . لقد افلحت الواقعية في ان تجعله يعيش بسلام مع نفسه ، ويستمد منه مما كان يعيش في اعماق نفسه من بيته الصقلية الاولى .

صحيح ان معاصرى فيرغا كانوا قد استقبلوا روایاته واعماله الادبية بشيء من البرود وملة الاهتمام ، غير انه ما كادت تميل شمس الواقعية الى الغروب ، وتتصبح شيئا من حصة التاريخ الادبي ، حتى أصبحت تلك الروايات والاقاصيص مشار الاعجاب الواسع لدى القراء والنقاد ، واخذت مكانتها الرفيعة بين روايات الآثار الادبية الكلاسيكية .

— * —

« ان فيرغا اليوم واحد من اوسع الكتاب شهرة وذبوعا في الادب الإيطالي .. وعلى الرغم من تغير الظروف التاريخية لا يزال اكثرا ما يكون حياة في ضمير الاجيال الجديدة التي تعتبره الكاتب الذي مجده اعظم الاخلاق الإنسانية نقاء ، والمجده الاكبر لقدسية الحياة ، ولنضال الرجلة اليومي للبقاء .. واغانيه تظل ضمن نطاق الانسانية ، الا انها تسمو على انسانيتها بتحمل الالم برجلة حقة . هذه هي رسالة فيرغا الاجتماعية : فالاب نتونسي هو رمز للعزمية الإنسانية السامية التي تعرف كيف تولف بين شريعة الحياة المتألمة وشريعة الله » .

كان جيزوالدو بناء ، وابن فروي يملك فرنسا للجير (مشيدة) . ناضل نضالاً عنيداً منذ طفولته ضد بؤس القراء وفاقتهم : « حمل الكثير من العجارة على منكبيه .. ونفسى العديد من الايام دون خبز » (ص 76) . لقد عمل اجيرا ، وبشأن ، وعديداً من الحرف الأخرى ، ولكنكه كان دائماً مصمماً على الانتصار على ظروفه الالية ، والتفلب على عناد القدار . وبفضل عمله المتواصل دون ملل أو تعب استطاع ان يتغلب على النظروف العصيرة ، وان يقتربن بفتاة تدعى (بيانكا تراو - Bianca Trau) كانت الاخيرة من اسرة نبيلة خفض الزمان جناحها . غير ان هذا الزواج ، الذى فرضته على الطرفين المصالح المادية وليس الحب المتبادل ، يصبح بداية لمصاب خطيرة ، ثم يفضى الى الدمار . والثمرة الوحيدة لهذا الزواج ، وهى الابنة ايزابيلا ، تعيش بعيدة عن ايتها الذى تخجل من اصله الوضيع ، تسمى تصبح زوجة لاحد دوقات باليرمو . وتموت الزوجة (بيانكا) بالكوليبرا ، ويصاب جيزوالدو نفسه بالسرطان ، فيقضي ايامه الاخيرة فى قصر زوج ابنته فى باليرمو ، ويموت بعد ذلك وحيداً يائساً بعد ان يرى ضياع الثروة التى جمعها بكرده وعرقه المتواصليين جميعاً ، والتى كانت اعز عليه من حياته . وتقول الرواية انه « هناك ، أمام الثروة التى يملكها ، افنتن بأنه انتهى حقاً ، وان كل امل له قد ضاع .. انه يود لو يستطيع ان يدمى بضرية واحدة كل الثروة التى جمعها شيئاً فشيئاً . يود لو امكن ان تذهب املاكه معه ، قانطة نائسة مثله ! » (ص 347)

في البداية تستولي اخت جيزوالدو وزوجها على
املاكه وثروته ، غير ان زوج ابنته لا يلبث ان يستولي
على كل شيء رغم احتجاج الشقيق جيزوالدو
المحضر الذي « كان بطنه منتفخا كالقرفة ...
والانیاب الكلبية في داخله تنهش كبنده نهشا »
(338)

الحتمية القدرة تسيطر من البداية إلى النهاية ، أو هكذا أرادها ، لأن في رغبة يرى « أن الناس - اختيارا كانوا أم شرارة - يجثم عليهم كابوس محظوظ صارم - كما يقول باسكواله لاما في الجزء الثالث

١ - اسرة مالافوليا : I MALAVOGLIA

في هذه الرواية لدينا عدة أبطال ، غير أن الرئيسين منهم ثلاثة ، هم : السيد تونى - والدار ، وتدعى باسم « دار الزعراورة » Casa del nespolo « المتنية » (Provvidenza) . - وتألف أسرة مalfolli من : الشيخ تونى ، والابن باستياناتسو - والكتنة ماروتزا Maruzza (La Longa) . - وتدعى أيضاً (La Longa) ، وكذلك من الأحفاد (تونى) - نوكا - مينا Mena - اليسندرو ، ويدعى أيضاً مصفرا ، اليسي - ثم ليما) . إنها أسرة من صيادي الأسماك يحاول افرادها أن يتعاونوا فيما بينهم على العيش من مهنة واحدة . وفي احدى السنين العجاف يحاول السيد تونى أن يتغلب على الفقر والجوع بتجارة الترمس (Lupini) ولاجل ذلك يستدين من أحد المراسين (واسمه كروتشيفيسو) خمسة لبرة . غير أن عاصفة تهب على المركب فتفرقه مع حمله . من الترمس ، ويفرق معهما كذلك الابن باستياناتسو . أما المركب فيفشل ويعاد اصلاحه للعمل من جديد ، وأما الدين فيظل دون تسديد رغم كل المحاولات والجهود التي يبذلها الشيخ تونى وسائر الاسرة . وأخيراً تضطر الاسرة إلى التخلص عن الدار العزيزة - دار الزعراورة - ثم عن المركب - العناية - لتسديد الدين . وحين تتجدد الاسرة من الدار والمركب تأخذ المصائب في التوارد عليها : فتموت الكنة بالكوليرا ، ويقضى الحفيد لوكا في معركة بحرية ، والحفيد الآخر تونى ، بعد أن يخدم في الجندي ، يعود إلى البطالة ، وينتمس في أعمال التهريب ، وبالتالي يدخل السجن ليقضى فيه خمس سنوات في القيد لطنه ضابط الحرس في اثناء معركة ليلية بين حرس الجمارك والمهربين . وبعد ذلك تغادر الحفيدة ليما المنزل ولا يعود أحد يرها . ويموت كذلك الشيخ في أحد المستشفيات بعد أن انفلته السنون والمصائب معاً . والحفيدة (مينا) لا تجد زوجاً بسبب المصائب المتلاحقة التي تنصب على بيت مalfolli ، فتنصرف إلى العناية باخيها الأصغر (اليسي) وأسرته . واليسي هذا هو وحده الذي يتزوج جارة له تدعى (نونتياتا - Nunziata) ويتمنى من استعادة الدار التي كان استردادها آخر أمنية للجد قبل احتضاره . وبعدئذ يخرج الحفيد تونى من السجن ويمضي بعيداً إلى حيث لا يستطيع أحد أن يعرفه .

كما نحب نحن ، حتى في أكثر حركات حياتهم سرية . انه يسمع أشد اصواتهم خفاء ، ويتجسس حتى على تهدياتهم في ليالي الارق » ... وأنا أحب أن أفيض هنا ان في رغبة يستحضر أشخاصه ومعهم بيئتهم الحقيقية . وعلى الرغم من انه كان يصر دائما على ان فنه لا صلة له بشخصه ، وينفي الذاتية عنه ، فان ما يضمه من كلام على افواه اشخاصه ينسجم كل الانسجام مع البيئة النفسية والروحية التي يحسها هو نفسه ويريد ابرازها ، اي مع عالمه الخاص . وطبعا انه يقدم لنا الحقائق في لمسات من يدفنان بارع ، لا وقائع تاريخية مجردة من حياة الجزيرة فحسب . والمساكين الذين يتضلون لاجل الرغيف ولاجل السلام في جزيرتهم هم وحدهم الاشخاص الذين يعتمدون في رغبة اختيارهم ليفصل على قياسهم فكرته الخاصة في القدرة وفي المصير المحتوم وجبروتة . غير انتا نراهم ، رغم الهزائم المزيرة ، على استعداد دائم لتابعة النضال بكل جداره ، ومن غير هذه . صحيح انهم قد ينتهيون الى الخيبة والقنوط ، ولكنهم يسقطون سقوط ابطال ، لا سقوط الضعفاء والجباء ، وفي بعض الاحيان قد يبلغ نضالهم – ولو متأخرا جدا – الى النصر ، والى استرداد الماء الذي فقدوه ، كما رأينا في (اسرة مالافوليا) وفي بعض جوانب في (المعلم السيد جيزوالدو) ايضا ، كما سأشرح ذلك في ما يلي :

في (أسرة مالافوليا) ينال الشیخ نتوی طوبیلا ، وتناسیل معه أسرته كلها كذلك ، لكنه يتوصلا إلى استرداد (دار الزعوررة) . غير أن السيد نتوی نفسه لا ينتصر ، لسوء حظه ، الا بعد موته : ففي اللحظة الأخيرة يبشره حفيدة اليسي بأنه استطاع ان يسترد الدار . كان السيد نتوی حينئذ على عتبة العالم الآخر الذي لا عودة منه ، غير انه احسن بان الحياة لم تخدعه خداعا تاما ، وبأن العدالة ما تزال توجد على الارض .

والبِّكْمَ مَا تَقُولُهُ الرِّوَايَةُ :

« حين أخبروه بعد ذلك أنهم استعادوا دار الزعورة ، وارادوا ان يعيدوه معهم الى (Trezzia) من جديد - كان حينذاك في المستشفى طبعا - أجاب بنعم ، ثم نعم ، بعينيه اللتين عادتا الى الاشراق ، وكاد فمه ينفرج من ضحكة عريضة : ضحكة أولئك الذين ما عادوا يعرفون الضحك ، او الذين يضحكون للمرة الاخيرة . ولكن الضحكة ظلت

من كتابه (تاريخ الادب الايطالي) ص 112 - يجتئ
كل طموح لهم نحو الرخاء و نحو الطمأنينة ، ويتعاقب
بقصوة ظالمة كل اراده لهم للخروج من قشرتهم ،
والارتفاع فوق ظروفهم الاجتماعية » .

ومع ذلك فان هناك، الى جانب القدار والكابوس الصارم ، شيئاً آخر هو «البطولة» ، هو الصمود حتى النهاية في النضال الذي يرافق سائر احداث اسرة مالافوليا والمعلم جيزوالدو . ان البطلين التائعين لا يرضخان للمصائب ، ولا يتحينيان أمام المصائب والموائق الرهيبة التي يضعها الفيلدر في طريقهما ، بل يسيرون رافعي الرأس دون ان يعرفا اليأس والهزيمة .

ان الحتمية القدرية ليست حقيقة مطلقة في الحياة ، بمعنى ان الانسان يجب ان يحنى راسه متسلما لها دون نضال . وكذلك هي في روایتی فيرغا : في حياة اشخاصه وتصرفااتهم ومعتقداتهم . انها ليست حقيقة مطلقة لا يمكن التفاصيل عليها بقوه الارادة ورجلة النضال ، بمقدار ما هي عقيدة مسيطرة على تفكير المؤلف نفسه . ان فيرغا يلح كل الالاحاج في ابرازها في روایاته . وعلى الرغم من انها ليست حقيقة لا علاج لها ، الا ان المؤلف يبحث عنها عامدا ، ويريدتها دون علاج لابطاله الذين يدعوههم (المفلوبين) لكي يحدد لهم قسمتهم تحديدا قسريا منذ الازل : اي ان «يعملوا ويتألموا» – كما يقول الناقد الإيطالي ساينيرو (Sapegno

ان اشخاص فيرغا ليسوا من اختراع خياله .
هذا صحيح ، ولكنهم مخاوقات آدمية ينتقيها هو
من الواقع البائس انتقاء بلحمنها ودمها ، ويعرضها
على المسرح لكي تمثل ادوارها الحقيقية التي يلزمهها
البيوس والنحس . غير أننا في هذا الواقع الذي
يعرضه لنا المؤلف نلمس لدى فيرغا ميلا طبيعيا -
او هل نقول « حتميا » ، حسب اعتقاده بالحتمية ؟
- الى المأساة أكثر منه الى الملهأة ، او الى بساطة الحياة
وعاديتها . وقد يكون ذلك لأن حياة جزيرة صقلية
كانت حينئذ - كما صورها فيرغا ، وكما صورها من
بعده جوزيبيني تومازي دي لامبيدوزا في روايته
(الفهد) او (Gattopardo II) كما هو عنوانها
بالإيطالية ، بكثير من الاغراق في التشاؤم - منفسي
 مليئا بالتعاسة والجهل والفقير والظلم .

يقول ماتزوني (Mazzoni) : « إن المؤلف يعطيها اشخاصه كما يريدهم هو ، ويجعلهم يتصرفون

ساعة واحدة مثل تلك الساعات التي كان يستمتع بها أخوه (سانتو) على حسابه في العانة « (ص 78) .

وعلى الرغم من كل هذا البوس والعناء فان دون جيزيز والدو لم يكن قط رجلا متخاذلا : لم يستسلم الى مشيئة القدر ، بل كان يريد ، باي ثمن ، ان يخرج من قشرته ويرتقي فوق ظروفه الاجتماعية الاصالية ». وقد رأينا في ما تقدم كيف استطاع بفضل عمله الدائب وتصميمه الحازم ان يصل الى مكانة اجتماعية مرموقة يحترمها الاخرون ، وان يصبح مرهوبا حتى لدى الشخصيات البارزة الضخمة في بلده ، وان يقتربن بفتاة من اسرة ارستقراطية . حتى ابنته الوحيدة اقترنت بأحد دوقات باليرمو .

صحيح انه في النهاية كان لابد ان يقضى بالسرطان ، الا انه مات بطلا لا خاملا وضيما . وعدا ذلك – وهذا مهم جدا – مات جبز والدو وألقا من ان ابنته – ثمرة زواجه الوحيدة – لن تعرف البوس والحمد لله ، بل ستنعم بثمرة تضحيته وكفاحه .

ومن هم الذين كافحهم المعلم جيز والدو ؟
لقد كافح الجميع ، وكافح كل شيء : كافح
البؤس ، وضعة الاصل ، وقوه الحياة ، وكيان
الشخصيات فى البلد ، وتحكم والده المتعنت ،
وحشد أخيه وجشه ، وكافح كذلك حشد شقيقته
وزوجها ، بل لقد كافح حتى (تانسي - (Tanni
الانتهازي) ، وهو ليس سوى زوج لخادمه (Diodata
(Diodata) . وكذلك كافح حقد الاخرين (تراو)
شقيقى زوجته ، كما كافح غرور صهره الدوق ،
ومساويه الكاهن (دون لوبى) وخبثه . وكافح
الملايريا ، وقوى الطبيعة التى تماكشه فى صف
خصوصه الناقمين الحاسدين . وفي كل مرة كان
جيذ والدو يخرج من هذا الكفاح منتصرا ، حتى
اللحظة الأخيرة التى ادار فيها وجهه نحو الحائط -
كما فعل والده من قبله - « وبردت اطرافه فجأة »
ثم سكتت حركته نهائيا » - كما يقول المؤلف
(ص. 367)

لقد مات السيد جيزوالدو والسيد نتونى
مالافوليا قاطنين ، هذا صحيح ، ولكنهم ماتا بكرامة
وانفنة . كانوا من الابطال الحقيقيين الذين يظللون
متذكرين سلامهم حتى النفس الاخير في كفاحهم
ضد حتمية القدر . وهذه البطولة في الصراع

مفروسة في قلبه كالنصل . ذلك ما جرى لاسرة مالافوليا حينما عادوا يوم الاثنين في عربة (العلم الفيو) ليجدهم معهم إلى المنزل فلم يجدوه» (ص 245).

اذن فقد انتصر السيد نتوني على حياة الفقراء المريدة ببنضاله الذي لم يكن لنفسه فحسب ، ولا يكتفى النصر وحده : بل لتظل ثمرة عنائه لا يحفاده من بعده . ان النصر يظل دائماً نصراً ، ولا يقلل من أهميته موت المحاربين الشجعان : فالنصر الحقيقي لا يجيء من دون تضحية . في جميع الحروب هناك من يحارب ويستقطع لأجل الآخرين ، وآخرون يفوزون بمكاسب تلك التضحية . فالمحارب إنما يحارب لكي ينتصر وهو يعلم حق العلم بأن الموت ينتظره في الحرب ، غير أن تضحيته لا تذهب عبثاً الا إذا لم يستفاد أحد منها من بعده . والتضحية هنا ، ونضال السيد نتوني الطويل الشاق ، استفاد منها آخر احفاده (اليسى) .

حتى المركب (العنابة) انتصر على هياج الامواج
والعواصف : كان حينا يمتليء بالماء حتى
ليخنقى عليه من الفرق ، وحينما يخرج
من مصارعة العواصف محطما . غير انه
في كل مرة كان يعاد اصلاحه ، فيعود سليما
ومستعدا لصراع جديد مع عاصفة اخرى ، واخيرا
تخلى عنه اصحابه الى المرابي كروتشيفيسو تسدیدا
ل الدين وهو في حالة جيدة ، وظل يعمل حتى وفاة
صاحب الاول .

اما في رواية المعلم جيزوالدو فان جيزوالدو نفسه هو الذي انتصر . لقد رأينا انه كان قد ولد في اسرة بالستة . واليكم ما تقوله الرواية في حياته :

« كان في حركة دائبة : يعمل دائمًا ولا تستريح قدماه أبداً ، من هنا إلى هناك ، في البرد والحر والمطر ، ورأسه مثقل بالا凡كار ، وقلبه متضخم بعدم الاستقرار ، وعظامه محطمة من التعب ، لا ينام أكثر من ساعتين إذا تيسر ذلك وكيفما تيسر : في قرنة اسطبل ، أو خلف سياج ، في المراء أو على الحجارة ، يأكل قطعة خبز أسود حينما كان : على ظهر البغل ، أو في ظل زيتونة ، أو على طرف حفرة ، في الملاриا او في دوامة من البرغش لم يعرف الأعياد ولا عطلة الأحد ولا عرف قط كيف يضحك ضحكة مفططة ... ولا وجده لديه

وسأمضي الآن في استعراض هذه المثاثن واحدة واحدة :

1 - المفردات والجمل:

في روائيتي فيرغما الكبرين مفردات لا شك في أنها عربية الأصل لفظاً ومعنىً . ومنها اللفاظ الشليه ، وهي كلها من رواية « ما لافوليما » ما عدا الأخيرة منها فهي من « العام جيزوالدو » :

1) CATRAME	قطران
2) CARRUBBO	خروب
3) BABAU	بعيسع
4) SOMMACCHI	سماق
5) ZAFFERANO	زعفران
6) SATANASSO	شيطان
7) SALAMALECCHI	سلامات ، او مجاملات (من « السلام عليكم »)

والى جانب هذه المفردات استعمل فيرغما جملة مركبة ليست ذات لفظ عربي او طبيعة عربية في كتابتها ، الا أن لها مشيلات في التعبير العربي ، مما يبدو معه الأمر غريباً اذا لم تكن هذه التعبير تحمل آثار الطابع العربي . واليكم بعض هذه العبارات ، مع ما يقابلها بالعربية ، واغلبها عامي ، ولكنني مضطر الى تحويله الى تعبير فصيح ، مع تقتی التامة من ان في البلدان العربية الأخرى ما يقابله :

1 - يضع حجراً على الماضي
(جيزوالدو 238)

1) Mettere pietra sul passato

2 - من أخذ مالك خذ روحه
(جيزوالدو 321)

2) A chi ti vuol pigliar la roba levagli la vita

3 - يعييء هواء للصيف
(جيزوالدو 271)

3) Prendere il fresco per l'estate

4 - الفسيل القذر لا ينشر على السطوح
(جيزوالدو 275)

4) I panni sporchi si lavano in casa

5 - الامثال لم تكذب قط
(مالافوليما 14)

5) Il motto degli antichi mai menti'

الإنساني لا يجوز ، في اعتقادي ، ان تخضعها لفكرة انتحمية وتحكم القدر ، كما يشاء النقاد الإيطاليون ان يعتبروها في روايات فيرغما . انها بطلة ، وليس خضوعاً واستسلاماً للقدر .

ونجيء الآن الى النقطة الثانية في روائيتي فيرغما الكبرين ، وهي (السمات والمشابه العربية) التي جعلناها عنواناً لهذه المحاضرة برمتها .

اننا هنا نصل الى نقطة فيها شيء من الخرج ومن اثاره الفضول معاً . وما اظن احداً قد اثارها من قبل ، او اهتدى اليها .

في روائيتي فيرغما الكبرين وجدتني ازاء بعض العناصر التي يبدو أنها متاثرة بالطبع العربي ، مباشرة أو غير مباشرة ، لأن البيئات العربية واللغة العربية ما يزال فيها الى اليوم ما يشبهها .

ومن المؤكد أن فيرغما لم يكن يعرف أن في اعماله الأدبية مثل هذه العناصر الأجنبية الواضحة . ولعله لم يخطر بباله قط أن كاتباً عربياً سيجيء يوماً من بلد بعيد في الشرق ليكشف عن سمات عربية في أدبه .

ولكن التأثير العربي في صقلية أمر غير منكور ، على كل حال ، ولا هو بالشيء الذي يمكن كتمانه ، فقد حكم العرب الجزيرة قرنين من الزمن ، وكان طبيعياً لذلك أن يتذروا آثاراً ملموسة في أهلها ، ولاسيما إذا عرفنا أن تأثيرهم الاجتماعي والتقافي قد استمر أكثر من قرنين بعد خروجهم من الجزيرة .

لقد خطر لي في البداية أن أجعل عنوان هذه المحاضرة ، وبشكل خاص هذا القسم منها : (اثر العرب في أدب فيرغما) ، غير أن عدم يقيني التام من هذا التأثير مباشرة جعلني اكتفي بعبارة (سمات ومشابهات عربية) ، وهي أقرب الى المنطق ، وربما كانت أقرب الى الصحة . وسأحاول في ما يلى ان أبين المشابه اللغوية والروحية والواقعية بين البيئة الفيرغوية والبيئات العربية .

ان السمات التي أعندها يمكن تصنيفها في ثلاث فئات :

1 - المفردات والجمل

2 - العادات والبيئات الشعبية

3 - الامثال والحكم

الصاب . وهم يحملون الارز ؛ والشاي ، والخراف، والدجاج ، والطحين . والقهوة ، وحتى الحطب لطهو الطعام والخبز وما الى ذلك من الحاجات البيتية . وأقربيون يُودون هذه المشاركة اللطيفة لمساعدة اسرة الميت وتعزيتها ، من جهة ، ثم لانه لا يجوز ان تتحمّل اسرة الميت وحدها كل النفقات - وهي غير قليلة -

2 - (مالافوليا - 80) في ما يتعلق ببواضث الشؤم يقول الكنة سانتوسا : « ان تقود العم كروتشيفيسو تحمل معها الدواهي ! ففى هذه النيلة ايضا سمعت الدجاجة السوداء تصيح » .

وعندنا ايضا اذا صاحت دجاجة مثل صياغ الذيك - وليس من الضروري ان تكون سوداء فقط - اعتبر ذلك نذير شؤم ، ولا بد عندئذ من ذبحها فدى عن البيت الذى تصيح فيه .

3 - (مالافوليا - 93) - كان الحفيد نوني يريد الاقتران ببرباردة رغم ارادته جده وأمه ، وكان الجد يؤبه قائللا : « هل ستتزوجها ؟ وانا من اكون ؟ وأماك ، اليس لها عندك شأن ؟ حين اراد ابوك ان يتخذ له زوجة استشارني في ذلك اولا » .

وفي رواية (المعلم جيزوالدو) كذلك حكاية مشابهة لهذه ، في الصفحة 105 ، حين يسأل خادم الكنيسة السيدة بيانكا تراو اذا كانت ستتزوج السيد جيزوالدو ، فتجيبه بقولها : « اذا كان اخواي قد رفضا ذلك فاي رأي لى ؟ » ثم اضافت : « ان اخوي هما صاحبا الامر ... وهما وحدهما اللدان يقدران » .

وعندنا ، فى اكثر البلدان العربية ، ان لم يكن فيها جمعها - وعلى الاخص فى القرى والبيئات البدوية ، يتم الزواج بمثل هذه الطريقة : ليس عن رغبة او حب متبادل ، بل باختيار الوالدين ، او الاخ الاكبر الذى تفضى التقاليد بأن يقوم مقام الوالد فى حالة وفاة الوالد .

4 - (مالافوليا 111) - ونأتي الان الى حادثة تبشر بفال حسن ، وذلك عندما « تظاهر ابنة العم حنة بسقوط قارورة الخمر من يدها ، وفيها نحو ربعماء من النبيذ ، فتأخذ عندئذ فى الهاتف : افرحوا ! .. ان اندلاع الخمر قال حسن ! »

عندنا يقال مثل هذا عن القهوة ، لا عن الخمر ، والاختلاف هنا بحكم البيئة والتقاليد فقط ، وذلك لأن القهوة هي دليل الضيافة الحميمة الاعم استعمالا

6 - رأه بعينيه اللتين سياكلهما الدود
(مالافوليا 16)

6) Li avevi visti con quegli occhi che dovevano mangiarseli i vermi

7 - فلان مثل الحيط المتخض
(مالافوليا 73)

7) Io sono come il muro basso

8 - واقع بين المطرقة والسدان
(مالافوليا 85)

8) Stava fra l'incudine e il martello

9 - لا يسمح بأن تتفت الذبابة على انهه
(مالافوليا 97)

9) Non si lasciava posare le mosche al naso

10 - المصائب تعلم الحكمة
(مالافوليا 119)

10) Il giudizio viene colle disgrazie

- * -

وهناك كثير من مثل هذه العبارات الإيطالية التي تقابل عبارات عربية مثلها وتطابقها كل المطابقة . وليس قصدي استعراضها جميعا بل تقديم بعض النماذج فحسب لكي انطلق بعد ذلك الى الفئة الثانية ، وهي :

2 - المشابه في العادات والبيئات الشعبية :

وهذه نقطة اخرى جديرة بالإبراز والدرس ، وهي تتعلق بالعادات الشعبية التي رسماها فيرغسا في روايته . ومن السهل ان نجد ما يماثلها تماما في الحياة الشعبية العربية . وانا اكرر انشى اورد ما اعرفه في بلدي ، يقينا مني بأن في البلدان العربية الاخرى ما يماثله . وهماك بعض تلك العادات :

1 - (مالافوليا - ص 44) - يدور الحديث على موت الابن باستياناتسو - وعند ذكر العادات الشعبية يعرفنا المؤلف كيف ان الاصدقاء يحملون الى بيت الفقيد هدايا من المجانين والبيض ، ومن خيرات الله .

ان مثل هذه العادة ما يزال متبعا الى اليوم فى القرى الاردنية ، مثلا - وليس من شك فى ان هناك مثله فى اقطار عربية اخرى - ففى القرى عندنا ليس الاصدقاء وحدهم هم الذين يحملون الى بيت الفقيد مختلف الهدايا ، بل تشارك القرية كلها فى ذلك كمعنى من معاني المؤاساة والمشاركة القلبية فى

والواعظ ان فيرغا قد استطاع ان يعطينا كل ذلك
براعة الفنان الاصيل .

وهنا أيضا نجد المجال واسعا للتفسير
واللاحظة . ومن بين الامثال المقلية التي اوردها
فيرغا في روايته (أسرة مالافوليا) اختار المجموعة
الثالثية ، مع ما يقابلها من الامثال العربية العامية
بشكل خاص ، (ولكنني مضطر الى ايراد هذه الامثال
بغير اصلها العامي) :

— ما كان اوله شرطا فآخره سلامة —

1) Quel che e' di patto non inganna

— عمر الشقي طويل —

2) Uomo povero ha i giorni lunghi

— نم بخير يا حاري لكي انام معك —

3) Augura bene al tuo vicino che qualcosa
te ne viene

— بعيد عن العين بعيد عن الخاطر —

4) Lontano dagli occhi lontano dal cuore

— الصديق عند الضيق —

او :

— عند الشدائد يعرف الاخوان —

5) Carcere, malattie e necessita', si conosce
l'amista'

— كل واحد يهيل النار على قرصمه —

6) Ognuno tira l'acqua al suo mulino

— البيت الذي ليس له كبير ليس له مشير —

7) Ascolta i vecchi e non ti sbagli

— الرجل يمسك من لسانه —

8) L'uomo per la parola e il bue per le corna

— الدم لا يصير سما —

او :

— الدم لا يصير ماء —

9) Il sangue non e' acqua

— من يلعب بالماء تبتل ثيابه —

10) Chi cade nell'acqua e' forza che si bagni

— الحب والبغض ليسا باليد —

11) Amare e disamare non sta a chi le vuol
fare

— من كان لا خير فيه لقدميه لا خير فيه لجديده

12) Chi cambia la vecchia per la nuova peggio
trova

لدى العرب ، وهي في ذلك كالخمر عند الإيطاليين
والفرنسيين عامة .

5 — (جيزوالدو 273) غضب جيزوالدو
غضبا شديدا حين بلغه ان ابنته ايزابيلا قد هربت من
المدرسة الداخلية ، واصابه ما يشبه الصدمة المفاجئة ،
فاضطروا الى استدعاء الحلاق ليسحب منه دما .

كملاج بدائي في بعض حالات المرض يلجأ
الكثيرون في بعض البلاد العربية — ان لم يكن في
جميعها — الى من يسحب منهم دما — وفي هذا نجد
من يستخدم العلق لص الدم — وهناك حلقون —
رأيت بعضهم بنفسي في القدس قبل عدة اعوام —
يعانون بتربية العلق في قوارير زجاجية كبيرة لهذا
الفرض ، وهم يستخدمونه بالصاقه على ظهر المريض
او عنقه لامتصاص شيء من دمه . وهناك من
يستخدمون الشفرة او موسى الحلاقة ، يشطبون
بهما ظهر المريض او اذنه . كما ان العادة الاكثر
شيوعا هي استعمال كاسات الدم لراحة المريض ،
ولا سيما اذا كان يشكو من ضيق الصدر او التزلا
الصدرية ، او ما الى ذلك .

من هذه النماذج نرى انما ازاء عادات متشابهة
كل التشابه في البيئة المقلية الفيرغوية وفي البلدان
العربية . ولا يبدوا لي شيء من الفراقة في ان تكون
هناك سمات عربية في هذه العادات المقلية ما دامت
هي نفسها شائعة في الاقطار العربية حتى اليوم .

— * —

3 - الامثال والحكم :

في الامثال والحكم نجد دائما خلاصة حميضة
لتجارب الشعوب عبر الاجيال ، كما نجد الصورة
الاصيلة للعقلية والروح والاخلاق التي اكتسبها شعب
ما نتيجة تجارب وصلات طويلة مع الشعوب الأخرى ،
سواء اكانت هذه الشعوب صديقة ام عدوة ، قريبة
ام بعيدة .

وفي (أسرة مالافوليا) بنوع خاص اهتم
فيرغا كثيرا ، وعمادا ، بالامثال المقلية ، وراح
يرددتها بكثرة في كل فصل من فصول الرواية
بمقداره الفنية الفائقة التي نعرفها . ومن المؤكد اننا
نستطيع ان نستخلص منها صورة المجتمع بكثير من
الدقّة ، سواء من الوجهة الخلقيّة ام الاجتماعيّة .

من البيئات الشعبية الصقلية المناضلة لأجل العيش ، والكافحة ببطولة جبار في سبيل التفاف على حتمية القدر القاسية .

و قبل أن أختم هذه الدراسة العاجلة أود أن أذكر ما قاله لويجي كابوانا ، رفيق فيرغا و مواطنه وزميل مدرسته الأدبية ، في هذه الواقعية الفيرغوية الصصيمية ، وهو : « ان فيرغا حينما تخطى على باله وضع فكرة قروية في صورة فنية ، لا يقتصر على جمع بعض المعلومات ، بل ينقل صورة أرضهم . ليس كافياً لديه أن يكون أولئك الأشخاص إيطاليين - الفلاح الإيطالي كلمة تجريدية - انه يذهب أبعد من ذلك كثيراً : يريد ان يكونوا صقليين .. يريدهم ان يكونوا من مقاطعة محددة ، بل من مدينة محددة ، بل من قطعة صغيرة من الأرض بحجم الكف ... عند ذاك فقط يقف » .

ان هذا التحديد ينطبق كل الانطباق على روائي فيرغا اللذين استعرضناهما في هذه المقالة : فلقد كان أدب فيرغا متزعاً من صميم الأرض البائسة التي رأى فيها المؤلف النور - وان لم يعش فيها كثيراً ، بل قضى الشطر الأكبر والاهم من عمره في الشمال الإيطالي الذي ينعم بالثراء والرخاء والحيوية العاملة في النهار والليل .

لقد كان فيرغا بحق ابن بيته ، وكذلك كان أدبه الحالد ، النابع من نفس تشعر ببوس الآخرين ، وبنضالهم القاسي في سبيل العيش .

وطبعي أنه ، وهذا أدبه ، لا بد من أن يعكس فيه الروح الصقلية العامة ، بكل ما فيها من رواسب وتأثيرات انتبعت في حياتها على مدى الأجيال . ومن هذه التأثيرات ما لمسناه الآن من المشابه والسمات العربية في البيئات التي وصفها فيرغا في روايته الكبرى : (اسرة مالافوليا) و (المعلم السيد جيزوالدو) .

13 - من أكل على ضرسه نفع نفسه -
13) Chi ha bocca mangia, e chi non mangia muore

14 - شيء خير من لا شيء -
أو بالعامية : (ربيحة الجوز ولا عدمه) -
14) Meglio poco che nulla

15 - كل طير يحن إلى عشه -
15) Ad ogni uccello il suo nido e' bello

16 - القناعة غنى -
16) Piu' ricco e' in terra chi meno desidera

17 - من عاشر القوم اربعين يوماً صار منهم -
أو : من يدخل بلد المور يقلع عنده -
17) Chi va con zoppi all'anno zoppica

18 - مال الحرام لا يدوم -
18) Roba rubata non dura

19 - ليس للجائع آذان -
وبالعامية : (الجوعان مالوش آذان)
19) Ventre affamato non ragiona

20 - المدoug يخاف من جرة الحبل -
20) Le cose lunghe diventano serpi

- * -

والآن بعد أن فرغت من استعراض هذه الأمثلة والنماذج العديدة ، والمشابه بين عادات وأمثال وتعابير متعددة من بيته روائيتي فيرغا الكبريين والبيئات العربية ، لست أزيد أن أجيء بحكم نهائي جازم في تأثير العرب في أعمال فيرغا الأدبية ، بل اترك هذا لكم أنتم . أما أنا فقد اقتصرت مهمتي على أن القي ، بقدر الامكان ، نوراً جديداً على بعض أعمال فيرغا الأدبية ، محاولاً بذلك فتح طريق جديدة لن شاء أن يتسع في دراسة فيرغا وأدبها الجميل المتزوج